وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعـــة ديالـــى
كلية التربية - الأصمعي
قســـم اللغـــة العربيـــة

المصـادر البلاغيـة : النقديـة في كتـاب (دلائـل الإعجـاز) ـ دراسة تحليلية ـ

رسالة تقدمت بها الطالبة
سوسن خيري نجم الجبوري

إلى مجلس كلية التربية / الأصمعي في جامعة ديالى
وهي جزء من متطلبات نيل شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها

بإشراف
الأُستاذ الدكتور
فاضل عبود خميس التميميّ

1432هـ
2011م

1- اللفظ والمعنى :-

إنَّ قضية اللفظ والمعنى هي كبرى القضايا النقدية ، التي عالجها النقد العربي القديم ، فهي بنية العمل الأَدبي وصياغته الشكلية والمعنوية ، والسرَّ في قضية اللفظ والمعنى : هو التساؤل عن سرِّ إعجاز القرآن : أهو في لفظه أم هو في معناه ؟ وكذلك جاء التساؤل في طبيعة العمل الأَدبي ، هل تكمن مزيتهِ في لفظهِ أم في معناه ؟

يُعْدُ الجاحظ أولَ بياني أَثار القضيّة ، وبدأ النقاش فيها ، ولابد من الأشارة إلى أَنَّ موضوع اللفظ والمعنى بدأ أول ما بدأ في ميدان الدراسات الفقهية ، ثم إتجه إلى الميدان الأَدبي ، وكان الجاحظ أول مَنْ نقل الأمر من ميدان الدراسة القرآنية ، إلى ميدان الدراسة الأَدبية ، ثم أخذ النقاد يعنون بالنص الأَدبي مثل عنايتهم بالنص القرآني[1] .

ولقد درس اليونان ، وأشاروا إلى موضوع اللفظ والمعنى قبل العرب بقرون . فلم يغفل أرسطو الإشارة إلى ما بين الأَلفاظ ، ومعانيها في الجمل من صلة وهو يرى جمال الأسلوب في نظام الجملة ، وفي توازي أجزائها فالكلمات عند أرسطو رموز للمعاني ، ووسيلة للمحاكاة وهي المادة التي تصاغ منها الاستعارات ، فهي متفاوتة فيما بينها ما بين جميلة ، وقبيحة[2] .

كانت عناية العلماء قبل عبد القاهر الجرجاني وفي عصرهِ يقودها فريقان : أولهما : فريق يعنى باللفظ ، ويُجْهِدُ نفسه في إختيار الكلمات ، وتنقيتها ويجعل التفاضل بين الأمور على أساس الألفاظ ، لقد رفض شيخ البلاغة عبد القاهر الجرجاني وجهة نظر هذا الفريق فهو يقول : ((فقد إتضح إذن إتضاحاً لا يدعُ للشكِ مجالاً أَنَّ الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هي كلم مفردة ، وأَنَّ الفضيلة وخلافها ، في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها ، وما أشبه ذلك ، مما لا تعلق له بصريح اللفظ))[3] ، وبهذا القول إتضح موقف

(1) ينظر : النظرية النقدية عند العرب : د.هند حسين طه : 248 .

(2) ينظر : نظرية النظم ، حاتم الضامن : 31 ، 32 .

(3) دلائل الإعجاز : 46 .

الجرجاني ورأيه تجاه هذا الفريق . وأَبرز من مَثّل هذا الفريق : قدامة بن جعفر الذي قال : ((وليس فحاشة المعنى في نفسه مما يزيل جودة الشعر فيه ، كما لا يعيب جودة النجارة في الخشب مثلاً رداءتهِ في ذاته))[1] .

وكذلك كان من أصحاب هذا الاتجاه أبو هلال العسكري الذي قال : ((وليس الشأن في إيراد المعاني ، لأنَّ المعاني يعرفها العربي والعجميُّ والقروي والبدوي وإنما هو في جودة اللفظ ، وصفائهِ ، وحسنه وبهائهِ ، ونزاهتهِ ونقائهِ ، وكثرة طلاوتهِ ومائه ، مع صحة السبك والتركيب ، والخلو من أود النظم والتأليف))[2] . وقد تبع هذه النظرية (اللفظية) نقاد كُثُرْ قادوا الدراسات النقدية فيما بعد إلى تغليب الشكل والعناية بلغة النص . والآخر : فريقٌ يرى أَنَّ الأَفضلية للمعنى ، وما الألفاظ إلا قوالب للمعاني ، فالمعنى عندهم عنصر جوهري في النصوص الأَدبية ، فهي بمنزلة الأبدان من الثياب بل المعاني عندهم أرواح الألفاظ ، وغايتها التي وضعت لأجلها ، وينطلق مَنْ ينتصر للمعنى من مبدأ الكلام النفسي ويقصد به جملة المعاني المترتبة في النفس وهذه سابقةٌ على اللفظ ، كما يسبق التابع[3] المتبوع ، ويمثل هذا الفريق أسامة بن منقذ (584هـ) الذي يقول في قضية التفرد بالمعاني : أن ((الخواطر مشتركة والمعاني معرَّضة لكلِّ خاطر ، جارية على كل هاجس))[4] .

أما أصحاب المساواة فأنهم فريقٌ مستقل يرى أَنَّ الأَدبَ لفظٌ ومعنى ، ويجبُ أَن يقاس بقدر ما أَحرز فيه مؤلفه ، من التوفيق والإصابة في كل من لفظهِ ومعناه[5] .

والحقيقةُ أَنَّ الذين إنتصروا للفظ والصياغة ، لم ينكروا أهمية المعاني ، وكذلك الذين

---

(1) نقد الشعر : قدامة بن جعفر : 21 .

(2) كتاب الصناعتين : 63 ، 64 .

(3) ينظر : النظرية النقدية عند العرب : هند حسين طه : 175 .

(4) ينظر : م . ن : 176 .

(5) ينظر : النظرية النقدية عند العرب : هند حسين طه : 175 .

عنوا بالمعاني وقدموها لم ينكروا فضل الألفاظ ، وأَهميتها وأَنَّ اللفظَ عنصرٌ مهم ، من عناصر الأَدب فأنَّ المعنى عنصر جوهري فيه أَيضاً[1] ، فالمسألةُ في كلِ مّضانها شكّلت نمطاً من الحوار الثقافي ، والفكري الذي أستساغهُ الجميع ، وزاد من علو خطابه الباحثون المعاصرون ، فضلاً عن أَنها من القضايا التي بكّر النقاد القدماء في الحديث عنها لأسباب تتعلق بظهور الدراسات البلاغية : النقدية التي حامت حول القرآن الكريم ، وإعجازهِ وتفسيرهِ ، وخيرُ من يُمثل هذا الاتجاه : الجاحظ الذي قال : ((المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي ، والبدوي ، والقروي ، والمدني ، إنما الشأنُ في إقامة الوزنِ وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وكثرة الماء ، وفي صحة الطبع ، وجودة السبك ، وإنما الشعرُ صناعةٌ ، وضربٌ من النسيج وجنس من التصوير))[2] إذ نلاحظُ أَنَّ الجاحظَ يَعدُ الأَدبَ ، مجالاً للإنتاج الجمالي مادتهُ الأَولية اللفظُ والمعنى .

أما عبد القاهر الجرجاني (471هـ) فلقد انتهى إلى الانتصار إلى الصورة الأَدبية فهو لا ينظر إلى اللفظ ولا إلى المعنى ولكن ينظرُ إلى الألفاظ مرتبطة بدلالاتها في السياق فاللفظُ والمعنى عندهُ طرفان لمعادلة واحدة هي (الشكل والمادة) أو (الصورة والمحتوى)[3] .

مصادر عبد القاهر الجرجاني في قضية اللفظ والمعنى :

لم ينكر عبد القاهر الجرجاني تأثرهُ بالسابقين له ، وأَشرتُ إلى ذلك في بداية بحثي[4] ، وهذا إنْ دلَّ على شيءٍ إنما يدلُ على أمانةِ الرجل ، وحسن منهجه ، وسلامة تفكيرهِ ، لقد تناولنا مصادرهُ في نظرية (النظم) ، وقمنا بتحليل أَقوالهِ فيها ، ورددناها إلى جذورها ، وكذا

(1) ينظر : النظرية النقدية عند العرب : هند حسين طه : 176 .

(2) الحيوان : الجاحظ : 3 : 132 .

(3) ينظر : من قضايا الشعر والنثر : عثمان وافي : 102 ، وينظر في محيط النقد الأَدبي : د.إبراهيم أبو الخشب : 58 .

(4) ينظر : التمهيد : 5 .

في موضوع (اللفظ والمعنى) وجدنا أَنَّهُ أخذَ ممن سَبقهُ بمستوياتٍ مختلفة ، فتارة يأخذ المعنى ، وأخرى المصطلح ، وفي تاراتٍ أَخرى يَنقلُ نقلاً حرفياً من دونِ أَن يُشيرَ إلى مصادرهِ .

لقد اطلَّع عبد القاهر الجرجاني على أَفكارِ الجاحظ ، وٱبن قتيبة ، وٱبن طباطبا ، وقدامة بن جعفر ، وٱبن جني ، وأبي هلال العسكري ، والقاضي عبد الجبار في كتبهم الشهيرة ، وأفاد منها ، وهذا ما بدا واضحاً في قضية (اللفظ والمعنى) .

لقد أفاد عبد القاهر الجرجاني من آراء (الجاحظ) في مسألة اللفظ والمعنى . فوظّف مصطلح (الوعاء)[1] الذي إستخدمهُ الجاحظ لمناقشة العلاقة بين (اللفظ والمعنى) ، فالتفكير في العلاقة بين اللفظ ، والمعنى بوصفها قالباً صوتياً مفرغاً يجعلنا ننتهي إلى أَنَّ اللفظَ لا قيمةَ له في حدِّ ذاتهِ ،وإنما الأهمية في (الوعاء) الذي يجمعهما معاً .

ويمكن أَن ندرك هذهِ الحقيقة إذا ما فككنا مَعِيْشَ اللفظِ الممتليء معناً والمتناسق على الرغم من تركيبهِ تناسقاً شديداً إلى مكونين هما اللفظ والمعنى ، وعندها سوف ندرك إننا لا نطلب اللفظ لذاته ، وإنما نطلبُ إدراك المعنى من خلالهِ ، وهو ما يُفسر تحوُله إلى مجرّد دليل حامل لدلالة وقد إنتهى الجاحظ إلى هذه العلاقة التلازمية بين اللفظ والمعنى ، وهي في الواقع علاقة المحتوى بالمحتوى[2] ، فيبيّن وهو يتناول معنى قوله تعالى : چ ڤ ڤ ڄ ڄ چ[3] أَنَّ الله تعالى ((لا يجوز أَن يعلمهُ الإسم ويدعُ المعنى ، ويعلمهُ الدّلالة ولا يضع له المدلول عليه ، والاسم بلا معنى لغو ، كالظرف الخالي ، والاسماء في معنى الأبدان والمعاني في معنى الأرواح ، فاللفظ للمعنى بدن والمعنى للفظ روح ، ولو أعطاه الاسماء بلا معانٍ لكان كمن وهب شيئاً

(1) فالوعاء حيّز متخّيل يجمع في مضانهِ حاصل الجمع بين قوة اللفظ ومتانة المعنى تحدّث عنه الجاحظ بوصفهِ (محتوى) .

(2) ينظر : الجرجاني أمام القاضي عبد الجبار : سلوى النجار : 202 .

(3) سورة البقرة : 31 .

جامداً لا حركة له ، وشيئاً لا حس فيه . ولا يكون اللفظ إسماً إلا وهو مضمّن بمعنى ، وقد يكون المعنى ولا إسم له ، ولا يكون إسم إلا وله معنى))[1] .

أفادَ الجرجاني من آراء الجاحظ في هذه المسألة فوظف مصطلح (الوعاء) بدورهِ لمناقشة العلاقة بين اللفظ والمعنى ، فـ ((الألفاظ إذا كانت أوعية للمعاني ، فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها))[2] فعلاقة اللفظ بالمعنى هي التضايف بعينهِ واللفظ لا قيمة له إلا لأنه مملوء أو (مضمن بمعنى) .

ومن أقوال الجاحظ التي تأثر بها عبد القاهر الجرجاني قولهُ في صياغة الكلام ، وكيف يمكن أن تكون الصياغة ضرباً من المهارة التي تسهم في تحقيق وضوح المعنى ، وتقديم الدلالة على أتم وجه .

قال عبد القاهر الجرجاني : ((ومعلومٌ أَنَّ سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة ، وإِنَّ سبيل المعنى الذي يُعَبَرُ عنهُ سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصَوغ فيه ، كالفضةِ والذهبِ ، يصاغُ منهما خاتمٌ أو سوارٌ ، فكما أَنَّ محالاً إذا أَنت أَردتَ النظر في صوغ الخاتم وفي جودة العمل ورداءته ، أن ننظر إلى الفضة الحاملة لتلك الصورة ، أو الذهب الذي وقع فيه ذلك العمل وتلك الصنعة ، كذلك محال إذا أردتَ أَن تعرف مكان الفضل والمزية في الكلامِ أَن تنظر في مجرد معناهُ ، وكما أَن لو فضلنا خاتماً على خاتم بأَن يكون فضة هذا أجود أو فضة أنفس لم يكن ذلك تفضيلاً له من حيث هو خاتم ، كذلك ينبغي إذا فضلنا بيتاً على بيت من أجل معناهُ أَن لا يكون تفضيلاً له من حيث هو شعر وكلام))[3] ، فعبد القاهر يُشيرُ إلى ألا قيمة للمعنى في تقويم النص الأَدبي ، وكذلك لا يمكن الإِهتمام باللفظ من حيث هو لفظٌ مجردٌ وإنما تكمنُ أهميتها ويظهرُ لها المزية والفضل في ترابطهما مع بعضهما ضمن نسق دلالي معين هو ما إصطلح عليه (النظم) .

---

(1) رسائل الجاحظ : ج (1) : 262 .

(2) دلائل الإعجاز : 52 .

(3) م . ن : 254 ، 255 .

نرى لهذا النص ، أو معناهُ سابقةً عند الجاحظ الذي ذكر : ((إنَّما الشعرَ صناعةٌ وضربٌ من النسج وجنسٌ من التصوير))[1] ، فالصناعة وإن كانت في اللفظ والمعنى تقتضي المزج بين عنصرين لا الأكتفاء بعنصر واحد ، فهذا هو جوهر كلام الجاحظ الذي أفاد منه الجرجاني .

وكذلكَ تأثر بابن قتيبة فأخذ عنهُ نصاً من دون أَن يشير إليه حين قال : ((إن منه ما حسن لفظهُ ومعناهُ ، ومنه ما حَسُنَ لفظهُ دون معناه ، ومنه ما حَسُنَ معناه دون لفظه))[2] ، وكان نص ٱبن قتيبة الذي أفاد منه الجرجاني – أي عبد القاهر – عندما قسم الشعر إلى أربعةِ أَضرب هو : ((ضربٌ حَسُنَ لفظهُ وجاد معناهُ ، وضربٌ حَسُنَ لفظهُ دون معناهُ ، وضربٌ حَسُنَ معناهُ وقَصُرَ لفظهُ ، وضربٌ قَصُرَ لفظهُ وقَصُرَ معناهُ))[3] والبحث يرى أَنَّ مجال الإفادة من ٱبن قتيبة واضحٌ بيّن ، على الرغم من إختلاف التناول عند الناقدين .

وقال عبد القاهر الجرجاني : ((... فإذا رأيتهم يجعلون الألفاظ زينةً للمعاني وحليةً عليها أو يجعلون المعاني كالجواري ، والألفاظ كالمعارض لها ، وكالوشي المحبر واللباس الفاخر والكسوة الرائقة))[4] الذي يشير إلى عمل اللفظين الذي رفض آراءهم ، وهذا النص قريب جداً من نص ٱبن طباطبا وإن لم ينص على إسمهِ الذي يقول فيه : ((وللمعاني ألفاظ تتشاكلها فتحسن فيها وتقبح في غيرها ، فهي لها كالمعرض للجارية الحسناء التي تزداد حسناً في بعض المعارض دون بعض))[5] .

وقال عبد القاهر ((إنَّ من الكلام ما أنت ترى المزية في نظمه والحسن كالأجزاء من الصيغ تتلاحق وينظم بعضها إلى بعضٍ)) .

---

(1) الحيوان : 3 : 131 .

(2) دلائل الإعجاز : 365 .

(3) الشعر والشعراء : ٱبن قتيبة : 3 ، 4 .

(4) دلائل الإعجاز : 263 .

(5) عيار الشعر : ٱبن طباطبا : 11 ، 12 .

يقول : ((ومنه ما أنت ترى الحسن يَهجم عليك منه دفعةً ، ويأتيكَ منه ما يملأ العين ضربة ، حتى تعرفّ البيت الواحد مكان الرجل من الفضل ، وموضعه من الحذق ، وتشهدُ لهَ بفضل المنة ، وطول الباع ، وحتى تعلم إن لم تعلم القائل – إنه من قيل شاعر فحل ، وأنه خرج من تحت يد صُناع ، وذلك ما إذا أنشدته ، وضعتَ فيه اليد على شيء ، فقلت : هذا هذا ! ما كان كذلك فهو الشِّعْرُ الشاعر ، والكلام الفاخر ، والنمط العالي الشريف ، والذي لا تجدهُ إلا في شعر الفحول البُزلّ ثم المطبوعين الذين يُلهمون القول إلهاماً))[1] .

يبدو لي أنَّ هذا النص للجرجاني الذي يصفُ فيه النمط العالي من الكلام ، والذي يأتي سلساً كالماء لمحتاجه ، وكالهواء لمن هو بأمس الحاجة إليه هو الآخر متأثر بنصٍ سابقٍ يعود إلى الناقد ٱبن طباطبا الذي قال فيه : ((فمن الأشعار أشعار محكمة متقنة أنيقة الألفاظ حكيمة المعاني ، عجيبة التأليف ، إذا نقضت وجعلت نثراً ، لم تبطل جودة معانيها ، ولم تفقد جزالة ألفاظها ، ومنها أشعار مموهة ، مزخرفة عذبة ، تروق الأسماع والإفهام ، إذا مرت صفحاً ، فإذا حُصِّلت وانتقدت بهرجت معانيها ، وزيفت ألفاظها ، ومجت حلاوتها ، ولم يصلح نقضها لبناءٍ يستأنف منه ، فبعضها كالقصور المشيدة والأبنية الوثيقة الباقية على مر الدهور ، وبعضها كالخيام الموتدة التي تزعزعها الرياح ، وتوهيها الأمطار ، ويسرع إليها البلى ، ويخشى عليها التقوض))[2] .

فابن طباطبا يرى أَنَّ هناكَ من الأشعار الجزل الرصين ، والمحكم المعاني ، الذي كُسي ثوب جمالٍ لا يفارقهُ ولو تحولت تلك الأَشعار إلى نثر فأنها تظل محتفظةً برونقها وبهائها ، فلا تفقدُ جزالة ألفاظها ، ولا روعةَ معانيها ، وهذا عين ما قال به عبد القاهر في نصّه السابق .

وكذلك نرى تأثر عبد القاهر الجرجاني بمعنى الصياغة الذي قال به قدامة بن جعفر

---

(1) دلائل الإعجاز : 88،89 .

(2) عيار الشعر : ٱبن طباطبا العلوي : 10 .

: ((المعاني للشعر بمنزلةِ المادة الموضوعة والشعرُ فيها كالصورةِ ، كما يوجد في كل صناعة من أَنه لابد فيها من شيء موضوع يقبل تأثير الصور منها ، مثل الخشبِ للنجارة ، والفضة للصياغة))[1] . نرى هنا إن عبدَ القاهر يمكن أَنْ يكون قد إِستسقى فكرة الصياغة من قدامة في قوله السابق حين ذكر : ((ومعلومٌ أَنَّ سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة ...))[2] .

ونرى أيضاً تأثر عبد القاهر واضحاً في إتجاه (ٱبن جني) المتمثل في إهتمامهِ بالقواعد والأصول من غير خوضٍ في الجزيئات والوقوف على النصوص وتحليلها[3] ، وهذا ما بدا واضحاً في الكثير من تطبيقات عبد القاهر في دلائل الإعجاز .

وقد إتخذ عبد القاهر أَصول النحو وقواعدهُ منطلقاً له ولكنهُ تجاوز المعاني الأول وبحث عما وراء العبارة أي عن المعاني الثواني (معنى المعنى) ، وعما توصي من أثر ، وكان تحليلهُ للنصوص رائعاً ، وكانت أحكامهُ دقيقة ، ولعلَّ وقوفهِ على الأَبيات : ((ولما قضينا من منى كل حاجة ...)) واهتمامهِ بالمعاني وجعل الألفاظ خدماً لها كان بتأثير (ٱبن جني) الذي لم يُشر إليه إلا مرةً واحدة في قولُهُ : ((إن كان أبو الفتح بن جني قال ما قال في قول المتنبي : ((وفيها قيت يوم للجراد)) حتى تكون فضيلةً يكون المتنبي بها أَشعرُ من بيت الحطيئة ، فمحال أَن يكون البيتُ بزيادة تقع في مجرد الإِغراق من دون صنعة تكون في تلك الزيادة أَشعر من البيت ذي الصنعة ولاسيما مثل صنعة الحطيئة التي لا يبلغ المتأمل لها غايةً

(1) نقد الشعر : قدامة بن جعفر : 19 .

(2) دلائل الإعجاز : 254 ، 255 .

(3) ينظر : أثر ٱبن جني في عبد القاهر وٱبن الأثير : د.أحمد مطلوب ، (بحث) ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، ج (1) ، المجلد الحادي والأربعون ، 1410هـ – 1990م ، كلية الآداب ، جامعة بغداد : 85 ، 86 .

في الإحسان إلا رأى أَن يزيد))[1] . وهذا دليل على أن كتب ٱبن جني كانت أمام عبد القاهر وهو يبحث في البلاغة ، ويُرسي نظرية النظم ، وفي الآتي من الكلام توضيح لتحليل عبد القاهر لأبيات ((ولما قضينا من منى كل حاجةٍ)) التي أفاد فيها من ٱبن جني :

قال الشاعر :

ولمّا قضينا من منىً كلَّ حاجةٍ وَمَسْحَ بالأَركانِ مَنْ هو ماسحُ
وشُدت على حدب المهارى رِحالُنا ولا ينظرُ الغادي الذي هو رائحُ
أَخذنا بأطرافِ الأحاديثِ بيننا وسالت بأعناقِ المطي الأَباطحُ[2]

يقول ٱبن جني في شرح الأَبيات (ولما قضينا من منى كلَّ حاجةٍ ...) : ((فأن قلت : فأنا نجد من ألفاظهم ما قد نقوه وزخرفوه ووشوه ودبجوه ، ولسنا نجد مع ذلك تحته معنى شريفاً بل لا نجده قصداً ولا مقارباً . ألا ترى إلى قوله : (ولما قضينا ... البيتان) فقد نرى إلى علو هذا اللفظ ومائهِ وصقالهِ وتلامح أنحائه ومعناه مع هذا ما تحسه وتراه ، إنما هو : لما فرغنا من الحج ركبنا الطريق راجعين وتحدثنا على ظهور الإبل . ولهذا نظائر كثيرة شريفة الألفاظ رفيعتها مشروفة المعاني خفيضتها))[3] . وقال : ((هذا الموضع قد سبق إلى التعلق به من لم ينعم النظر فيه ولا رأى ما أراه القوم منه ، وإنما ذلك لجفاء طبع الناظر وخفاء غرض الناطق))[4] ، أي أَنَّ ٱبن جني لم يوافق الآراء التي قيلت في هذا الشعر ، ومنهم آراء ٱبن قتيبة الذي لم يرَ في الشعر حسناً إلا لما في ألفاظهِ من رونق وحلاوة ، وعذوبة ، وطلاوة فلم يأخذ بهذا الرأي ،

(1) دلائل الإعجاز : 564 .
(2) الأَبيات لكثير عزة ، في ديوانه : 1 : 79 ، وينظر : دلائل الإعجاز : 74 ، 75 . ولابد من الإشارة إلى أَنَّ عبد القاهر قد أَشار إلى هذه الأبيات في أسرار البلاغة : 21 ، 22 .
(3) الخصائص : ٱبن جني : تح : محمد علي النجار ، ج (1) : 217 ، 218 .
(4) م . ن : ج (1) : 218 ، 219 .

ثم مضى يوضح ما في الشعر من روعة معنى وجمال لفظ وبديع نسج فقال : ((وذلك إن في قوله : (كل حاجةٍ) ما يفيد منه أهل النسيب والرقة وذو الأهواء والمقة ما لا يفيده غيرهم ولا يشاركهم فيه من ليس منهم . ألا ترى أَن من حوائج منى أشياء كثيرة غيرها الظاهر عليه والمعتاد فيه سواها ، لأن منها التلاقي ، ومنها التشاكي ، ومنها التخلي ، إلى غير ذلك مما هو تال له ومعقود الكون به . وكأنه صانع عن هذا الموضع الذي أومأ إليه وعقد غرضه إليه بقوله في آخر البيت : (ومسح بالأركان من هو ماسح) أي : إنما كانت حوائجنا التي قضيناها ، وآرابنا التي أنضيناها من هذا النوع الذي هو مسح الأركان وما هو لاحق به وجار في القربة من الله مجراه . أي : لم يتعد لهذا القدر المذكور إلى ما يحتمله أول البيت من التعريض الجاري مجرى التصريح))[1] . وهذا تخلص بديع في تفسير الشعر إذ إن الشطر الأول : (ولما قضينا من منى كل حاجةٍ) يوهم ويثير تخيلاً قد يكون بعيداً عن القصد ، قلما قال : (ومسح بالأركان من هو ماسح) وضع المعنى في نصابه ، وقيده بعد أن كان مطلقاً يذهب الظن فيه كل مذهب . وتطرق ٱبن جني إلى شرح البيت الأخير (أَخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ...) وقال : ((وفي هذا ما اذكره لتراه فتعجب ممن لكان عجبَ منه ووضع معناه ، وذلك أنه لو قال : (أخذنا في أحاديثنا) ونحو ذلك لكان فيه معنى يكبره أهل النسيب وتعنوا له ميعة الماضي الصليب ، وذلك أنه قد شاع عنه واتسع في محاوراتهم علو قدر الحديث بين الأليفين والفكاهة بجمع شمل المتواصلين كما في قول أبو ذؤيب الهذلي :

وأَنَّ حديثاً منكِ لو تعلمينه جنى النحل في ألبان عوذ مطافلِ[2]

فإذا كان قدر الحديث مرسلاً عندهم هذا على ما ترى فكيف به إذا قيده بقولهِ : ((بأطراف

(1) الخصائص : ج (1) : 218 ، 219 .
(2) ديوان الهذليين : ج1 : 140 .

الأَحاديث)) وذلك أَن في قولِهِ : ((أطراف الأحاديث)) وحياً خفياً ورمزاً حلواً . ألا أنه يريد بأطرافها ما يتعاطاه المحبون ويتفاوضه ذوو الصبابة المتيمون من التعريض والتلويح والإيماء دون التصريح ، وذلك أحلى وأومث وأغزل وأنسب من أن يكون مشافهةً وكشفاً ومصارحةً وجهراً . وفي قوله : ((وسالت بأعناق المطي الأباطح)) من الفصاحة ما لا خفاء به ، والأمر في هذا أسير ، وأعرف ، وأشهر))[1] .

إنَّ موقف ٱبن جني يدل على دقة في الفهم ورقة في الذوق وبراعة في التفسير ، لأنه لم يسلك مسلكاً نحوياً وأَنما إعتمد على الذوق وما يثير النص في نفس المتلقي من معنى ومشاعر شتى . وكانت لهذه النظرة الأدبية صدىً واضح في تحليل عبد القاهر الذي وقف من هذا الشعر موقف ٱبن جني إذ كان إعتماده في شرح هذه الأبيات على ما يثير النص من خيال وما يوحي من معنى مستنداً إلى روح البلاغة العربية في التحليل قال : ((فانظر إلى الأَشعار التي أثنوا عليها من جهة الألفاظ ووصفوها بالسلاسة ، ونسبوها إلى الدماثة ، وقالوا كأنها الماء جرياناً والهواءُ لطفاً))[2] .

أخذ عبد القاهر يوضح سبب الحسن والروعة في الشعر فقال : ((وذلك أن أول ما يتلقاك من محاسن هذا الشعر أنه قال : (ولما قضينا من منى كل حاجةٍ) فعبر عن قضاء المناسك بأجمعها والخروج من فروضها وسننها من طريق أمكنه أَن يقصر معه اللفظ وهو طريقة العموم ثم نبه بقوله : (ومسح بالأركان من هو ماسح) على طواف الوداع الذي هو آخر الأمر ودليل المسير الذي هو مقصوده من الشعر ، ثم قال : (أخذنا بأطراف الأحاديثِ بيننا) فوصل بذكر مسح الأركان ما وليه من ذم الركاب وركوب الركبان ، ثم دل بلفظة (الأطراف) على الصفة التي يختص بها الزمان في الشعر من التصرف في فنون القول وشجون الحديث أما هو عادة المتطوفين من الإشارة والتلويح والرمز والإيماء ، ولقد إستسقى

---

(1) الخصائص : ج1 : 219 ، 220 .

(2) دلائل الإعجاز : 74 ، 75 ، وينظر : أثر ٱبن جني في عبد القاهر وٱبن الأثير : د.أحمد مطلوب ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، 1 ، 64 ، المجلد الحادي والأربعون ، 1410 : 1990 .

هذا المعنى من (ألبن جني) وخاصةً عند قولهِ : (يريدُ بأطرافها ما يتعاطاهُ المحبون ذوو الصبابة المتيمون من التعريض والتلويح ، والإيماء دون التصريح ، وذلك أحلى وأدمث وأغزل ، وأنسب من أن يكون مشافهةً وكشفاً ومصارحةً وجهراً))[1] . لقد شارك الشيخ (عبد القاهر) ، (ألبن جني) في هذا المعنى بخاصةً في موضوع التلويح والإشارة وما له من أثر في النفس أبقى وأجمل من التصريح ، والعربُ إنما يهمها الرمز والإيماء لأنه يلهمها سعة الخيال وخصب التفكير ، أكثر من الشرح والتفصيل .

ثم قال : (بأعناق المطي) ولم يقل (بالمطي) لأن السرعة والبطء يظهران غالباً في أعناقها ويبين أمرهما من هواديها وصدورها ، وسائر أجزائها تستند إليها في الحركة وتتبعها في الثقل والخفة .

وتعمق عبد القاهر في إيضاح هذه المسألة فقال في : ((وسالت بأعناق المطي الأباطح) : أراد أنها سارت سيراً حثيثاً في غاية السرعة ، وكانت سرعة في لينٍ وسلاسةٍ حتى كأنها سيولاً وقعت في تلكَ الأباطح فجرت بها))[2] ، وليست الغرابةُ في هذه الأستعارة لأن جعل الشاعر ((المطي في سرعة سيرها وسهولتهُ كالماء يجري في الأبطح ، فأن هذا شبه معروفٌ ظاهرٌ ، لكن الدقة واللطف في خصوصية أفادها بأن جعل (سالَ) فعلاً للأباطح ، ثم عداهُ بالباء بأن أدخل (الأعناق) في البيت ، فقال : (بأعناق المطي) ولم يقل : المطي ، ولو قالَ : (سالت المطي بالأباطح) لم يكن شيئاً))[3] .

فالحسن في الشعر لا يرجع إلى الألفاظ وإنما إلى شبكة العلاقات بينها وهو ما سماهُ عبد القاهر بالنظم ، ولو أخذت ألفاظ الأبيات منفردة لم يكن لها هذا الحسن .

---

(1) دلائل الإعجاز : 74 ، 75 . وينظر : أثر ألبن جني في عبد القاهر وألبن الأثير : أحمد مطلوب : 65 ، وينظر : الخصائص : ج (1) : 219 ، 220 .

(2) م . ن : 74 .

(3) م . ن : 75–77 ، وتنظر 294–296 .

فالنظم هو الذي أكسب الأبيات مزيةً وفضلاً ، وأظهر معناها وجلاه ، وكان للأستعارة موقع حسن ، ولو لا النظم لم يكن لها هذا الحسن .

وهذه خطوة واسعة تضاف إلى خطوة ٱبن جني ، فقد أخذ عبد القاهر طرف السلك ثم مضى يسلك فيه الدّر النضيد ، ويظهر روعة الأبيات وجمالها ، ودقة المعنى ، وجمال اللفظ .

وكان من أثر هذه الخطوة النظر إلى اللفظ والمعنى نظرة ثاقبة ، ورأى أنهما يكونان نسيج النص وهو ما سماهُ بالنظم ، ولكنه – كابن جني – رأى أَن الألفاظ خدم للمعاني وبنى تصوره البلاغي والنقدي على هذا الأساس[1] ، الذي ليس فيه قدماً بالألفاظ .

ومن النصوص المتعلقة ببحث صفات اللفظ ، وتُحيل عند النظر فيها إلى القاضي عبد الجبار ، قول الجرجاني وهو يستدلُ على نفي المزية في المعاني : ((ومما نجدهم يعتمدونه ويرجعون إليه قولهم : ((إنَّ المعاني لا تتزايد ، وإنما تتزايد الألفاظ))[2] .

فهو يَقرُ بإسناد التزايد للألفاظ وينفيهِ عن المعاني ، لأن المعاني لا يقع فيها التزايد ، فهي على لسان الجاحظ مطروحة في الطريق يعرفها الجميع بلا إستثناء . والمعاني التي ينفي القاضي تزايدها هي نفسها التي وصفها الجاحظ بأنها (مطروحة في الطريق) وهي المعاني التي قال الجرجاني أنها (الأَدب أو الحكمة) وأَن المزية محال أَن تكون فيها فليست هي إذن المعاني الأولى التي تنشأ من نظم الكلام وتأليفهِ ، وقد أدركَ الجرجاني المغزى الذي قصدهُ صاحب النص مع إنّهُ لم يذكر اسمه فهو يقول أي – القاضي عبد الجبار – : ((... على إنا نعلمُ أَنَّ المعاني لا يقع فيها تزايد ، فأذن يجب أَن يكون الذي يُعتبر ، تزايد عند الألفاظ التي يُعبر بها عنها))[3] .

---

(1) ينظر : أثر ٱبن جني في عبد القاهر وٱبن الأثير : 67 .

(2) دلائل الإعجاز : 63 ، 64 .

(3) المغني في أبواب التوحيد والعدل : القاضي عبد الجبار ، 16 : 199 .

ونعتقد أَنَّ هذا الفهم البديل ليس الفهم الذي بنى عليه نظريتهِ في النظم ، وهو أَن يكون تزايد الألفاظ عبارة عن تزايد المزايا التي تحصل من تنويع العلاقات بين المعاني النحوية وحسب لأن نظرية النظم في الأساس هي نظرية اللفظ والمعنى معاً .

2- نظرية النظم :-

إنَّ معظم النظريات الخالدة في العالم لا تعدمُ أَن تجد لها سوابق في إشارات المتقدمين وكتاباتهم ، ولكن الفكرة التي تستحق إسمَ نظرية : هي ما كانَ لِصاحبها فضل عَرضها وتحقيقها واستقرائها وتحليلها[1] ، وهذا ما ينطبقُ على نظرية النظم ، وعلاقتها بعبد القاهر الجرجاني ، فالنظمُ قبلهُ لم يكن مقصوداً عن عمدٍ ، ومدروساً بطريقةٍ مباشرة ، وإنما هو شيء عفوي نابع من ملاحظات العلماء حين يأخذون بجمالِ الشعرِ ، والإعجازِ في القرآن داخل هذا النطاق فحسب[2] .

لمصطلح النظم جذورٌ لغويةٌ ، أَفادَ منها البلاغيون في دراساتهم ، وبنوا عليها أَفكارهم وقواعدهم ، التي عُدْت من خطوات التجديد في البلاغة العربية ، فجذورُ نظرية النظم قديمة كُشِف عن بذورها فيما كتبهُ النحاة ، والبلاغيون ، ومؤلفو كتب الإعجاز ، كذلك نجدُ من غير العرب مَن عَنى بهذهِ الفكرة ، فأرسطو في كتابهِ (فن الشعر) ، تحدثَ عن أَقسامِ الكلمة ، والفروق بين أَقسامها ، والمقاطع والحروف ، والأَصوات التي رآها ضرورية في البلاغة[3] ، كما تحدث في كتابه (الخطابة) عن مراعاة الروابط بين الجمل ، والأسلوب ، وطرق أَدوات الوصل

(1) ينظر : من الوجهة النفسية : خلف الله أحمد : 93 .

(2) ينظر : من بلاغة النظم العربي : د.عبد العزيز المعطي : 13 ، وينظر : نظرية الإعجاز القرآني : 132 .

(3) ينظر : فن الشعر لأرسطو : ت عبد الرحمن بدوي : 55 .

، والتكرار ، مما يدلُ على إنَّ أرسطو إتخذ من هذهِ الموضوعات أساساً في دراستهِ للأساليب ، والتمييزَ بينها ، مما يؤكد البحث أَن جذور النظرية تمتدُ بعيداً في تراث الإنسانية[1] .

أقوالُ الباحثين في مصادر النظم :-

كانَ عبد القاهر يؤلفُ ، وأفكار السابقين مهضومة في فكرهِ يستحضرها وقتما يستلزم الأمر المناقشة ، أو الاستشهاد ، أو الاستئناس ، فلم يكن يؤلفُ وكتبُ الآخرين مبسوطةً بين يديهِ ، لقد كان صاحب فكرٍ ، وقضايا يطرحها ، ومصنفات الآخرين من خلفهِ بَعد أن يَتمثلها في عقلهِ ، وكان أكبرُ اهتمامهُ بفكر الجاحظ ، والآمدي ، والقاضي الجرجاني ، وٱبن جني ، كما أولى أهتماماً بأفكار سيبويه ، وغيرهِ[2] .

إنَّ منهج ٱبن جني في مزج اللغة بالفكر كان حاضراً في عقل الشيخ الجرجاني ، وهو يفسرُ النظم ، وتطبيقاتهِ ، وظواهرهِ ، كما أَنَّ تأثرهُ بالخطّابي ظاهراً بيناً في أصل فكرة النظم ، وصلة البلاغة بالإعجاز[3] ، ولقد كان تأثر عبد القاهر بالجاحظ في قضايا العلم بالشعر ظاهرٌ بيّن ، حتى أنهُ يتفوقُ على غيرهِ في هذهِ الناحية من التأثر[4] ، وأما تأثرهُ بالآمدي ، والقاضي الجرجاني فكان ظاهراً في نقد الشعر ، فقد استثمر عبد القاهر الفكر النقدي للموازنات ، وهو يدرس قضية الإعجاز ، إذ رأى ضرورة تمرس الباحث في الإعجاز للمفاضلة بين شعر ونثر ، ومعرفة طبقات الكلام ودرجاتهِ ليكون مقدمة للنظر في نظم الشعر ونظم القرآن ليتبين الفيصل ، والفرقان[5] .

---

(1) ينظر : الخطابة لأرسطو : ترجمة عبد الرحمن بدوي : 185 .

(2) ينظر : شرح دلائل الإعجاز : 21 .

(3) ينظر : مدخل إلى كتابي عبد القاهر : الشيخ أبو موسى : 36 .

(4) ينظر : شرح دلائل الإعجاز : 21 .

(5) ينظر : م . ن : 22 .

وتأثر عبدُ القاهر بالرماني (ت 386هـ) في مواضعَ كثيرة من كتابهِ ، وكان متوازناً بين الأفادة منه في باب الاستعارة والإيجاز ، والرد عليه في عدِّه ، تلاؤم الحروف من البلاغة التي يُفسر بها الإعجاز[1] .

ولا يخفى تأثر عبد القاهر بالقاضي عبد الجبار وعلى الرغم من استدراكهِ عليه في تعريف الفصاحة التي فسّر بها الإعجاز تعريفاً يوهم التعلق بالألفاظ ، وعلى الرغم أيضاً من وجود مشابهة تَعدُ كبيرة ، بينهما ، وتأثير الأوّل على الثاني يُعد عظيماً ، فأن الجرجاني يخفي هذا التأثير وتلك المشابهة فيهملُ إهمالاً تاماً ذكر القاضي عبد الجبار عن عمدٍ وإصرار على أَنه يذكرُ أسماء كثيرة ممن نقل عنهم أو أخذ منهم في دلائل الإعجاز[2] .

ومع هذا الموقف المتشدد لعبد القاهر من الفكر الاعتزالي ، فلقد كان للمعتزلة فضلٌ لا يستهانُ عليه ، تكشفه القراءة الدقيقة لكتاب دلائل الإعجاز .

وقد أشارَ هو نفسه بتأثرهِ بالعلماء والاعترافِ بفضلِهم إذ قال : ((ولم أَزل منذ خدمتُ العلمَ أنظرُ فيما قاله العلماء في معنى (الفصاحة) ، و(البلاغة) ، و(البيان) ، و(البراعة) ، وفي بيان المغزى من هذهِ العبارات ، وتفسير المراد بها ، فأجدُ ، بعض ذلك كالرمز ، والإيماء ، والإشارة في خفاء ، وبعضهُ كالتنبيه على مكان الخبيء ليطلب ، وموضع الدّفين ليبحث عنه فيخرج ، وكما يفتح لك الطريق إلى المطلوب لتسلكه ، وتوضع لك القاعدة لتبني عليها . ووجدتُ المُعوَّل على أَن ههنا نظماً وترتيباً ، وتأليفاً ، وتركيباً ، وصياغةً وتصويراً ونسجاً وتحبيراً ، وأَنَّ سبيل هذهِ المعاني في الكلام الذي هي مجازٌ فيه ، سبيلها في الأشياء التي هي حقيقة فيها))[3] .

وحاصلُ القولِ في هذه القضية أن عبد القاهر اعتمد كثيراً على أقوال الآخرين ولكن إتكاءه على عقلهِ كان أكبرَ من إتكائهِ عليهم ، وهو بذلك في طليعة النماذج المجددة في الحركة

(1) ينظر : شرح دلائل الإعجاز : 22 .
(2) ينظر : م . ن : 22 .
(3) م . ن : 34 .

العلمية قديماً ، إذ أحسن عبد القاهر توظيفُ أفكارَ سابقيه في مجالاتها ، وعمل كذلك على الملاءمة بين أفكارِهِ وأفكار الآخرين بهدف إخراج نظرية النظم إخراجاً دقيقاً ، ومؤثراً في معاصريه ، والذين يأتونَ من بعدهِ ، ولقد كان تأثيرهُ قوياً متسقاً حتى نراهُ متشعباً في إتجاهاتٍ ثلاثة عند نقاد القرون اللاحقه له :

الأوّل : تجاهُ يغلبُ عليه التعقيد ، والضبط كالرازي (ت 606هـ) في كتابه نهاية الإعجاز في دراية الإعجاز ، ثم السكاكي (ت 626هـ) ومن دار في فلكهِ .

الثاني : إتجاهٌ يغلبُ عليه التذوق الأَدبي للشواهد كما هو عند ٱبن الأثير (ت 637هـ) في (المثل السائر) والعلوي (ت 749هـ) في الطراز .

الثالث : إتجاهٌ يحسن الإفادة بفكر عبد القاهرمن الجهة التطبيقية كالزمخشري (ت 538هـ) في تفسيرهِ (الكشاف) الذي إمتد تأثيره إلى أكثر المفسرين من بعدهِ .

لقد وظف الجرجاني أفكار الآخرين في مجالات أخرى غير التي وردت فيها عندهم ، وهذه ميزة العلماء الكبار الذين يحسنون الإفادة بالأفكار إلى أقصى الدرجات ، ونقل الفكرة من مجال إلى آخر بالقياس والاستنباط[1] .

لقد بات مشهوراً في الوسط اللغوي ، والأدبي أَنَّ نظرية النظم مرتبطة بعبد القاهر الجرجاني ، والحقيقة إِنَّ نظرية النظم من حيث الأصول ، والبنود من أَفكار كثير من العلماء القدماء منهم القاضي عبد الجبار لكنَّ الفرق الوحيد بينهما هو تسمية المصطلح فهو عند القاضي (الضم والنظم) وعند عبد القاهر (النظم)[2] وبعد الإطلاع على آراء عدد من الباحثين ، وجدنا العديدَ منهم توصلوا إلى هذهِ النتيجة في مقدمتهم : الدكتور شوقي ضيف الذي يقول : ((وحقاً إنَّ عبد القاهر حاول تفسيرهُ بتوخي معانيه فحسب ، ولكن حين نحلل هذه المعاني ، نجدها تنحل إلى نفس الكلام الذي حاول به عبد الجبار تصوير الوجوه التي يقع بها

(1) ينظر : شرح دلائل الإعجاز : 22 .

(2) ينظر : نظرية القصد وأثرها في المعنى والإعجاز القرآني عند القاضي عبد الجبار : ليلى عباس خميس ، سلسلة الدراسات الإسلامية المعاصرة ، 2007 : 147 .